
**Joinville and his Book “The Life of Saint Louis IX” as a Source
for the 7th Crusade against Egypt 647-648 AH / 1249-1250 AD
(A Comparative Study with the Islamic Sources)**

Asst. Prof. Dr. Hayder Khudhair Murad Al-Yasari
Presidency of the University of Kerbala / Department of Studies and
Planning

Email: hayder.k@uokerbala.edu.iq

ORCID ID: <https://orcid.org/0009-0001-1911-3465>

DOI: <https://doi.org/10.31973/aj.v2i146.4279>

Abstract

The topic of this research centres around the French historian Joinville and his book “The Life of Saint Louis”, in which he dealt with the events and facts of the Seventh Crusade against Egypt from the year 647 AH / 1249 AD to the year 648 AH / 1250 AD during the reign of the French King Louis IX. The study examines this author as a Latin source compared to Islamic historical sources. Through this study, it was found that the historian Joinville was distinguished by his talent in accurately describing the events and details of the Seventh Crusade against Egypt, because he was one of the knights of this campaign and an eyewitness to its facts and circumstances, and by virtue of being very close to the French king. He represents a model for the Frankish crusader knight nascent, the European feudal society during the Middle Ages with its ideas, its feudal tendency, and its vision of Muslims and the Crusades, especially since it belonged to the French barons class, a class that had its weight and gravity in French society at the time. Therefore, it represents the Latin viewpoint, in contrast to the view presented by Arab-Islamic sources on the facts and circumstances of this campaign against Egypt, and therefore his book "The Life of Saint Louis" is a great record of the history of King Louis IX, feudal France, and the Seventh Crusade against Egypt.

Keywords: Joinville, Louis IX, Egypt.

جوانفيل وكتابه حياة القديس لويس التاسع مصدراً عن الحملة الصليبية
السابعة على مصر ٦٤٧ - ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م
(دراسة مقارنة مع المصادر الإسلامية)

أ.م.د. حيدر خضير مراد اليساري

رئاسة جامعة كربلاء

قسم الدراسات والتخطيط

(مُلخَصُ البَحْث)

يتمحور موضوع البحث حول المؤرخ الفرنسي جوانفيل وكتابه حياة القديس لويس والذي تناول فيه أحداث ووقائع الحملة الصليبية السابعة على مصر من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م إلى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م في عهد الملك الفرنسي لويس التاسع ودراسة مؤلفه هذا كمصدر لاتيني عن هذه الحملة بالمقارنة مع المصادر التاريخية الإسلامية.

وقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة أن المؤرخ جوانفيل، قد تميز بموهبته في الوصف الدقيق لأحداث وتفاصيل الحملة الصليبية السابعة على مصر، لأنه كان أحد فرسان هذه الحملة وشاهد عيان لوقائعها وملابساتها، وبحكم كونه مقرباً جداً من الملك الفرنسي، وهو يمثل نموذجاً للفارس الفرنسي الصليبي وليد المجتمع الإقطاعي الأوربي خلال العصور الوسطى بأفكاره وبنزعتة الإقطاعية ورؤيته عن المسلمين وعن الحروب الصليبية، لاسيما وأنه كان ينتمي الى طبقة البارونات الفرنسية وهي طبقة لها ثقلها ووزنها في المجتمع الفرنسي آنذاك، لذلك فهو يمثل وجهة النظر اللاتينية المخالفة لوجهة النظر التي تقدمها المصادر العربية الإسلامية عن وقائع وظروف هذه الحملة على مصر، وبالتالي فإن مؤلفه "حياة القديس لويس" يعد سجل عظيم القيمة لتاريخ الملك لويس التاسع وفرنسا الإقطاعية والحملة الصليبية السابعة على مصر.

الكلمات المفتاحية: جوانفيل، لويس التاسع، مصر.

المقدمة

يتمحور موضوع البحث حول المؤرخ الفرنسي جوانفيل وكتابه حياة القديس لويس والذي تناول فيه أحداث ووقائع الحملة الصليبية السابعة على مصر من سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م إلى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م في عهد الملك الفرنسي لويس التاسع ودراسة مؤلفه هذا كمصدر لاتيني عن هذه الحملة بالمقارنة مع المصادر التاريخية الإسلامية .

وتكمن أهمية هذا البحث في ان المؤرخ الفرنسي جوانفيل كان مقرباً إلى حد كبير من الملك لويس التاسع ومرافقاً له أثناء حملته على مصر ويعتبر شاهد عيان معاصر لأحداث تلك الحملة و تفاصيلها ووقائعها وقد دُوّن ووصف كل ما شاهده أثناء مشاركته في الحملة الصليبية السابعة على مصر في كتابه حياة القديس لويس الذي سجل فيه ذكرياته عن الملك لويس التاسع وعن اقواله وأفعاله ، وكل ما يتعلق بشخصيته التي امتلكت طابعاً دينياً مقدساً في نظر معاصريه ، لذلك يعد كتاب حياة القديس لويس من المصادر التاريخية المهمة عن الحملة الصليبية السابعة على مصر حيث سجل فيه جوانفيل معلومات هامة عن وقائع وملابسات تلك الحملة وبتفصيل موثق ، وهو يمثل وجهة النظر اللاتينية التي تخالف ما ورد في المصادر العربية الإسلامية عن تلك الحملة وأحداثها ، لذلك من المهم دراسة هذا الكتاب وتسلط الضوء على المعلومات التاريخية الواردة فيه ومقارنتها بما ورد في المصادر العربية الإسلامية عن أبرز أحداث ووقائع الحملة الصليبية السابعة على مصر ، وبيان مواطن الاتفاق والاختلاف بينهما في رؤية وتفسير تلك الوقائع والأحداث التي شهدتها تلك الحملة .

وسنحاول من خلال هذا البحث الإجابة عن بعض التساؤلات التي تخص هذا الموضوع والتي أهمها هل كان المؤرخ الفرنسي جوانفيل أميناً في نقل وتصوير الأحداث والوقائع التي شهدتها تلك الحملة على مصر ؟ ثم هل كان موضوعياً في سرده لأحداث الحملة السابعة وملابساتها ؟ وهل يمكن الاعتماد على كتابه حياة القديس لويس في دراسة أحداث هذه الحملة ومقارنتها بما ورد في المصادر الإسلامية للوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع ؟

وقد قسم البحث إلى محورين خصص المحور الأول لسيرة المؤرخ جوانفيل فتناولنا فيه اسمه ونسبه وأسرته ، استعرضنا نشأته وعلاقته بالملك لويس التاسع وأسباب تأليف كتابه حياة القديس لويس وأسلوبه في تدوين هذا الكتاب وأهمية مؤلفه ومن ثم وفاته . أما في المحور الثاني فتناولنا وصف جوانفيل لأحداث حملة لويس التاسع على مصر فتضمن وصف جوانفيل لوصول الفرنجة الى الساحل المصري واحتلال دمياط ووصف معركة المنصورة ووصف وقوع الفرنسيين في الأسر وقارنا كل ذلك بما ورد في بعض المصادر الإسلامية و تطرقنا أيضاً الى وصف المماليك البحرية عند المؤرخ جوانفيل ثم اختتمنا البحث بخاتمة تضمنت أهم الاستنتاجات التي تم التوصل إليها .

وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إنجاز هذا البحث كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) وكتاب حياة القديس لويس للمؤرخ الفرنسي جوانفيل

(ت ١٣١٩هـ/١٧١٩م) الذي تضمنته الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية في جزئها الخامس والثلاثون بترجمة وتحقيق الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي بذل جهوداً كبيرة في ترجمة هذا الكتاب والتعليق عليه، فضلاً عن نسخة أخرى من نفس الكتاب بعنوان "القدّيس لويس حياته وحملاته على مصر والشام" بترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي، وكتاب مؤرخو الحروب الصليبية للسيد الباز العريني فضلاً عن بعض المراجع الأجنبية الهامة وغيرها من المصادر والمراجع التاريخية التي قدمت معلومات ثمينة أفادت محتوى الدراسة من جوانب عدة.

المبحث الأول : سيرة جوانفيل

أولاً: اسمه ونسبه وأسرته

هو جان دي جوانفيل Jean de Joinville، وهو ثاني أبناء سيمون، سيد جوانفيل، وهي بلدة تقع شرقي باريس، وصنجيل^(١) مقاطعة شامبانيا التي تقع شمال شرق فرنسا، وأمه بياتركس Beatrix ابنة ستيفن كونت أوكسون، وهي مقاطعة في شرقي وسط فرنسا، وكانت جدته لأمه بياتركس كونتيسة^(٢) شالون سيرسلون chalon- sur – saone، أما جده الأكبر جفري الثالث، فكان صنجيلاً على شامبانيا اعترافاً ببسالته في الحرب الصليبية الثالثة سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م وصارت صنجيلية شامبانيا وراثية في أسرته، وللصنجيل Senechal مكانة كبيرة في المجتمع الاقطاعي آنذاك، لأنه يرأس المحكمة العليا بالإقليم، ولأنه مسؤول عن كل ما يجري بدار السيد الاقطاعي، من احتفالات ومواكب (العريني، ١٩٦٢م، ص ١٥٣-١٥٤).

وأسهّم في الحملات الصليبية الموجهة الى الشرق جده المباشر، واسمه جفري أيضاً، الذي لقي مصرعه أثناء حصار عكا^(٣)، وعمه ترويار Brouillard مات عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م في حصن الشقيف^(٤) الخاضع للاسبتارية^(٥) واشترك أبوه سيمون في الحملة

(١) صنجيل Seneschal : وهي احد الوظائف الاقطاعية ترجع أصولها الى العصر الكارولنجي وقد ترجمها بعض مؤرخي العرب القهرمان، ويؤدي صاحبها التزامات وواجبات وظيفية باعتباره كبير الخدم في دار السيد الاقطاعي او القصر الملكي. ينظر: (براور، ٢٠٠١م، ص ١٢٤-١٢٥؛ العريني، ١٩٦٢م، ص ١٥٤).

(٢) الكونتيسة: مصطلح لاتيني يقصد به السيدة النبيلة، وهي زوجة الكونت، ولقب الكونت او القومس او القمس من الألقاب الهامة لأنه يطلق على النبلاء او الشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في اوربا خلال العصور الوسطى، ولفظة القومس عن ابن منظور تعني الملك الشريف او السيد والجمع قمامس او قمامسة. ينظر: (ابن منظور، د.ت، ج ٤٢، ص ٣٧٣٨ مادة "قمس" ما هو معنى كونتيسة، موسوعة نت، <https://www.maoso3a.net>).

(٣) عكا : مدينة تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط شمال غرب فلسطين . ينظر: (الحموي، ١٩٧٧م، ج ٤، ص ١٤٣؛ غربال، ٢٠١٠م، مج ٤، ص ٢٢٦).

(٤) الشقيف: هو شقيف أرنون، قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس. ينظر: (الحموي، ١٩٧٧م، ج ٣، ص ٣٥٦).

الصليبية الموجهة إلى عكا، وفي الحملة التي قادها سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م جان دي بريين^(٦)، للاستيلاء على دمياط^(٧) (الحملة الصليبية الخامسة)، ولما عاد الى وطنه ، كان له شأن كبير في سياسة بلاده (العريني، ١٩٦٢م، ص ١٥٤). ومن ذلك يتضح أن المؤرخ جوانفيل ينحدر من عائلة اقطاعية فرنسية مقربة من الأسرة الملكية وكان لها دور مهم في الاشتراك في الحملات الصليبية التي شنّها الغرب الأوربي ضد الشرق الإسلامي.

ثانياً: نشأته

ولد جان دي جوانفيل في مقاطعة جوانفيل عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤م، ولم يعرف بالدقة تاريخ ولادته (المرجع نفسه، ص ١٥٣)، ولا تقدم المصادر معلومات عن طفولته او حياته الأولى. وفي سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣١م، خطب سيمون لابنه جان الذي لم يتجاوز وقتذاك السابعة من عمره ، اليكس جراند بري Alix de Grandpre شقيقة كونت جراند بري وترتب على وفاة أكبر أبناء سيمون عام ٦٣٧ هـ/١٢٣٩م، ان صار جان جوانفيل وريثاً له في ألقابه وممتلكاته ، وورثت أمه كل ثروة كونتيسة شالون سيرسلون فأقبلت الدنيا على جوانفيل، وارتفع شأنه بسبب ما اجتمع له عن طريق والده ووالدته ، من ألقاب وثروة ، على ان خطيبته لم تجلب له من الأراضي إلا ما كان يغل نحو (٣٠٠ دينار) سنوياً، وتم في سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م زفافه الى اليكس جراندبريه التي أنجب منها أول ولد له وهو جان أمير انسفيل Anceville في عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م (جوانفيل ، ١٩٦٨ ، ص ٧٦) ، وحينما كان جان في السادسة عشرة من عمره توجه الى بلاط سيده تيبولت Thibault كونت شامبانيا وملك نافار، ليكون غلاماً (سائساً) له، كيما يقف على مراسيم البلاط وتقاليد (العريني، ١٩٦٢م، ص ١٥٤)، وليس معروفاً متى تم تنصيبه فارساً، والراجح أن ذلك حدث في سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣م، حينما تسلم ضياع أبيه وممتلكاته من أمه الوصية عليه (المرجع نفسه، ص ١٥٤ - ١٥٥).

(٥) الاستبارية: أحد الهيئات الدينية العسكرية كانت في بداية امرها هيئة خيرية ترعى المرضى من حجاج بيت المقدس وتقوم على ايواء الفقراء وخدمتهم ثم تحولت تدريجياً الى هيئة خيرية عسكرية لها نشاط حربي واسع ضد المسلمين في بلاد الشام. للمزيد عنها ينظر: (دي فيتري، ٢٠٠٥م، ص ٢٠٦-٢٠٧؛ رانسيان، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ١٨٨).

(٦) جان دي بريين ملك بيت المقدس (٦٠٧-٦٢٢ هـ/١٢١٠-١٢٢٥م) تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري ابنة كونراد مونتفرات في عام ٦٠٧ هـ/١٢١٠م وفقد سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م عندما تزوجت ابنته ايزابيلا الثانية (يولاند) من فريدريك الثاني ، كان شيخاً كبيراً يبلغ من العمر ستين عاماً ، ولديه دراية واسعة بالسياسة الدولية وهو الذي قاد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط . للمزيد عن ترجمته ينظر: (بادربورن ، ١٩٩٨م، ج ٣٣، ص ٢٥٧ حاشية (٣)؛ رانسيان ، ١٩٩٨م، ج ٣ ، ص ٢٢٤-٢٢٥).

(٧) دمياط: مدينة قديمة بين تّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام، عندها يصب ماء النيل في البحر، وعرض النيل هناك نحو مائة ذراع. ينظر: (الحموي، ١٩٧٧م، ج ٢، ص ٤٧٢؛ القزويني، دبت، ص ١٩٣).

وبعد مشاركته في الحملة الصليبية السابعة على مصر من سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م الى سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م عاد الى فرنسا، وبلغ وقتذاك الثلاثين من عمره وأصبحت له تجربته وخبرته وشهرته، فكان فارساً لامعاً معروفاً ببسالته، ومن أقرب أصدقاء الملك (المرجع نفسه، ص ١٥٨). وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ماتت أم جوانفيل، وزوجته الأولى، فتزوج في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م من اليكس رينل ابنة أحد جيرانه، فأنجب منها ثلاثة أولاد وابنة واحدة، هي التي تزوجت من هنري إيرل لانكستر، وحفيد هنري الثالث، ملك إنجلترا، وبذلك اتصل نسبه بانجلترا وويلز، وفي عام ٧١١ هـ / ١٣١١ م صار جوانفيل في زمن الملك فيليب الجميل صنجيلاً لشامبانيا (المرجع نفسه، ص ١٥٩).

ثالثاً: علاقته بالملك لويس التاسع

توجه جوانفيل في صحبة كونت شامبانيا إلى بلاط الملك لويس التاسع في سومر Sumer، لحضور مأدبة كبيرة، شهدها عدد كبير من السادة والأمراء ولأول مرة صار جوانفيل صنجيلاً (المرجع نفسه، ص ١٥٤).

وفي تلك الأثناء تزوج لويس التاسع من مركريت أميرة بروفانس، ووقع سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م، فريسة مرض بالغ الخطورة، وفي لحظة من اللحظات الحرجة أخذ لويس الصليب، واقتدى به إخوته، وكبار رجال بلاطه، وعدد كبير من البارونات أمثال كونت فلاندرز، ودوق برجنديا، الذي يمت بصلة قرابة إلى جوانفيل (جوانفيل، ١٩٦٨ م، ص ٧٥-٧٦)، ومن الطبيعي أن يسهم جوانفيل في الحملات الصليبية، خاصة لأن أسلافه الذين ينتمون الى ثلاثة أجيال سابقة، اشتركوا في هذه الحملات فاتخذ جوانفيل الصليب، وتوجه إلى مرسيليا، وبصحبه ثلاثة من الفرسان ونحو مائتي رجل (المصدر نفسه، ص ٧٥-٧٦)؛ (Tappan, 1967, p.57).

وخلال تلك الحملة التي استمرت من عام ٦٤٦-٦٥١ هـ / ١٢٤٨-١٢٥٣ م دخل جوانفيل في خدمة الملك لويس التاسع، وحصل منه في نيسان عام ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م، على خراج دائم، قدره ٢٠٠ جنيه تورنوا (العريني، ١٩٦٢ م، ص ١٥٥).

وعلى ما يبدو ان العلاقة قد توطدت بينهما خلال هذه الحملة وأصبح جوانفيل بمثابة مستشاراً مقرباً من الملك لويس التاسع (غريال، ٢٠١٠ م، مج ٣، ص ١٢٤٦)، ولم يتردد في ان يوجه للملك لويس النصيحة الخالصة، فهو الذي ألح على الملك لويس بعد خروجه من دمياط الى الشام في عدد قليل من الفرسان، بأن يبقى في الشام، ويبذل جهده في استخلاص الأسرى الذين لا زالوا بيد المسلمين (جوانفيل، ١٩٩٩ م، ج ٣٥، ص ١٥٧-١٥٨)، وبحكم تواضع الملك لويس، لم يسعه الا ان يتقبل هذه الاقوال الصريحة، بل أنه أفاد من نصائح جوانفيل (جوانفيل، ١٩٩٩ م، ج ٣٥، ص ١٦٠-١٦١؛ العريني، ١٩٦٢ م،

ص١٥٦)، حتى أنه قال له ذات مرة : " لتطمئن نفسك لأنني جداً مسرور منك للنصيحة التي قدمتها "(جوانفيل ، ١٩٦٨م، ص١٩٥)، وهكذا أصبح جوانفيل من أقرب اصدقاء الملك لويس التاسع ، وموضع ثقته حتى انه كان كثيراً ما يستشيريه في شئون الحملة وفي أموره الخاصة أيضاً (جلال ، ٢٠١٧م، ص٢)، وقام جوانفيل بمثل ما قام به أبوه من قبل، بما هو مفروض عليه من الواجبات الاقطاعية (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص١٥١-١٥٣، ١٥٩-١٦٠؛ العريني ١٩٦٢م ، ص١٥٥-١٥٦)، ولما عاد لويس من الحملة الصليبية ، جعل لجوانفيل الذي صار من اتباعه بعض الالتزامات والحدود التي لا يتجاوزها ، إذ جعل له ما يتحصل من خراج اراضي دير من الاديرة، دون الاشراف عليه (العريني، ١٩٦٢م ، ص١٥٥-١٥٦).

الا ان جوانفيل عارض قيام الملك لويس التاسع بالحملة الصليبية الثامنة على تونس ورفض الاشتراك فيها(غريال، ٢٠١٠م، مج٣، ص١٢٤٦)، ولم يكتف بذلك بل بذل كل ما في وسعه ليثني سيده عن اتخاذ سياسة بالغة الخطورة ، اذ رأى أن أولئك الذين نصحوه بالقيام بهذه الحملة، ارتكبوا أثماً كبيراً (جوانفيل، ١٩٦٨م، ص٣١٢؛ RÜTH, 2017,p.137).

رابعاً : أسباب تأليف كتابه حياة القديس لويس

ألف جوانفيل كتابه الموسوم " حياة القديس لويس " بناءً على رجاء الملكة جان دي نافار (١٢٧٣-١٣٠٥م) ملكة شامبانيا وزوجة فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤م) المعروف فيليب الجميل او الوسيم والتي رغبت في تخليد ذكريات الملك لويس التاسع وأفعاله وأقواله، وان تخلف لأطفالها كتاباً يروي ما كان لأجدادهم من أعمال جليلة (العريني، ١٩٦٢م، ص١٦١؛ RÜTH,2017, p.121)، ولكن جوانفيل الذي بدأ بتدوين مذكراته عن الملك لويس التاسع ، والذي يسميه بالقديس لويس، سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٤ م لم ينتهي من كتابة مؤلفه إلا في سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م أي بعد أن مضت أربع سنوات على وفاة الملكة جان دي نافار عام ٧٠٥ هـ/١٣٠٥م لذلك أهدى جوانفيل كتابه بعد فراغه منه إلى ابنها لويس العاشر (١٢٨٩-١٣١٦م)^(٨)، في عام ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م(العريني، ١٩٦٢م، ص١٦٠-١٦١؛ غريال، ٢٠١٠م، مج٣، ص١٢٤٦؛ جلال ، ٢٠١٧م ، ص٢)، كما صرح بذلك في مستهل كتابه : " مولاي العزيز، اغتنم الفرصة لأخبركم بأن سيدتنا الملكة أمكم رجنتي بإخلاص عظيم، أن أكتب كتاباً لها ، يحتوي على الأقوال التقوية والأفاعيل الجيدة لمليكننا

(٨) وهو ملك نافار وكونت شامبانيا والذي أصبح فيما بعد ملكاً على فرنسا بوفاة أبيه فيليب الجميل في عام ٧١٤ هـ/١٣١٤ م. ينظر: (جلال، ٢٠١٧م، ص٢).

القديس لويس، وقد وعدتها بالقيام بذلك ، وقد أكملت الكتاب الآن "(جوانفيل، ١٩٩٩ م ، ج٣٥، ص١٠؛ (RÜTH, 2017,p.124).

على أنه ينبغي ألا نغفل أيضاً عن ما اشتهر به بلاط شامبانيا وقتذاك، من تشجيع الأدب، من النثر والشعر (العريني، ١٩٦٢م ، ص ١٦١)، وما اشتهر به جوانفيل من الاهتمام بأحداث الحياة اليومية ، جعل منه ناثراً أكثر منه شاعراً ، فحينما كان جوانفيل بعكا في شتاء ١٢٥٠ - ١٢٥١ م واسترد عافيته وصحته ، بعد متاعب حملة لويس على مصر ، وتوافر لديه وقت الفراغ كتب دستور الإيمان (المرجع نفسه ، ص ١٦٢).

ومن الدواعي التي دفعت جوانفيل إلى الكتابة عن القديس لويس فضلا عن الأسباب التي سبق ذكرها هو أنهما كانا صديقين منذ الصغر، وأن الذكريات الشخصية هي التي حملته على ان يقوم بذلك (المرجع نفسه ، ص ١٦٢)، وأشار جوانفيل إلى أن خطة كتابه استوحاها من فكرة دينية خالصة (المرجع نفسه ، ص ١٦٤)، ومن خلال مؤلفه هذا يرسم جوانفيل حياة الملك لويس التاسع على أنها تقليد لحياة المسيح (عليه السلام) (RÜTH, 2017,p.124-125)

خامساً : أسلوب جوانفيل في الكتابة وأهمية الكتاب

كتب جوانفيل مؤلفه " حياة القديس لويس " بأسلوب سهل ممتع وباحترام عميق للملك لويس التاسع الذي كان في نظر معاصريه قديساً شهماً، وبصر ينفذ الى الجوانب النفسية والصور التفصيلية، وأحياناً بروح فكهة ممزوجة بالدعاء، وهذا المؤلف مملوء بالاستطراد والذكريات الشخصية، ويبدو جوانفيل فيه أقرب الى الأديب الحكيم المجرب منه إلى المؤرخ (غزبال، ٢٠١٠م، مج٣، ص ١٢٤٦).

ويغلب على الكتاب طابع السيرة الذاتية، وبحسب ميشيل زينك أن حياة القديس لويس هي أول سيرة ذاتية عامة في الأدب الفرنسي ، لأن تاريخ جوانفيل تولى اهتماماً بها لم يسبق له مثل في مؤلف باللغة الفرنسية (RÜTH, 2017,p.122).

وقد كان جوانفيل أول مؤلف يتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم (Ibid)، واشتهر أيضاً بموهبته في الوصف ، فجعلنا نرى ما يراه ونتعرف إلى أولئك الناس الذين وصفهم لنا ، فكل عالم الحروب الصليبية، يعيش في صفحاته (العريني، ١٩٦٢م، ص ١٦٥)، ويشكل الجزء الذي تعامل مع الحملة الصليبية السابعة حوالي خمسة وسبعين بالمائة من الكتاب (RÜTH, 2017,p.121-122)

ويعد جوانفيل ثقة في تاريخ تلك الفترة فقد عرف بالدقة والصدق فيما يكتب، ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه عندما كان يتعرض لواقعة لم يشترك فيها بنفسه ، فإنه كان يحرص على تقييد اسم الشخص الذي رواها عنه (جلال، ٢٠١٧م، ص ٢)، وهو يقول بهذا الصدد : " أنا

ألفت انتباهكم بحزم الى ان هذه الاشياء المدونة في الكتاب حتى يمكن لأولئك الذين يستمعون إلى هذا الكتاب أن يؤمنوا بقوة بما يقوله عن تلك الأشياء التي رأيتها وسمعتها حقاً بنفسي، ولا أستطيع ان أصرح إن كانت الأشياء الأخرى المكتوبة هنا صحيحة لأنني لم أراها أو أسمعها" (RÜTH, 2017,p.130)

إلا أنه مما يؤخذ على جوانفيل مدحه وتحيزه الشديد للملك لويس التاسع إغفاله بعض الجوانب السلبية في شخصيته والتي أشار إليها المؤرخ متى الباريسي والتي منها أنه قد قام بفرض ضرائب ثقيلة على الشعب الفرنسي بالاتفاق مع البابوية من أجل تحقيق مشاريعه الصليبية حيث ذكر بهذا الخصوص: " أن الملك الفرنسي لويس التاسع قام بناءً على إذن من البابا ، ومبادرة منه ، بظلم مملكته بعدة طرق مضاعفة باستخراج مبالغ كبيرة من المال، بحجة الوفاء بحجه بطريقة توائم مرتبته، فقد أخذ عشر موارد جميع كنائس مملكته، فضلاً عن هذا، أخذ البابا جزءاً من عشرين، وكان ذلك قام بناء على اتفاق بينهما، أخذاه من أجل مساعدة الأرض المقدسة ، ولكل واحد منهما لمدة ثلاث سنوات "(الباريسي، ٢٠٠١م، ج٤٨، ص٨٩٥).

وكذلك أشار الى هذا الأمر المؤلف المجهول لحكايات المنشد من ريمس حين ذكر " ان لويس التاسع قد وافق على وقف طوعي لثلاث سنوات للديون المستحقة على الفرسان للبرجوازية"، وقارن سياسة القديس لويس مع سياسة جودفري دي بويون^(٩) الذي تحمل تكاليف مشاركته في الحملة الصليبية الأولى ببيع دوقيته إلى الأب . (Tappan, 1967,p.59) إن هذه الانتقادات للطريقة التي يمول بها لويس التاسع حملته الصليبية الى الأراضي المقدسة تم التغاضي عنها من قبل المؤرخ جوانفيل.

وجعل جوانفيل كتابه في قسمين، أختص أولهما بالتعاليم الصالحة للقديس لويس، أي شخصيته وسلوكه، ووصف شجاعته وعطفه وعدله وإيمانه، وعالج القسم الثاني، أعماله الحربية في مصر والشام كما عرفها جوانفيل(العريني، ١٩٦٢، ص ١٦٤)، حيث يقول عن ذلك : " ... الذي قسمته على قسمين يتحدث القسم الأول حول كيف تحكم الملك لويس في جميع الحالات بحياته وفقاً لإرادة الرب ، ولشرائع الكنيسة المقدسة، ويتحدث القسم الثاني عن شجاعته المشهودة وعن براعته العظيمة في استعمال السلاح"(جوانفيل ، ١٩٩٩م ، ج٣٥، ص١٠).

(٩) هو جودفري بن الكونت بوستاس ، و دوق اللورين السفلى ولد سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠م بمدينة بولونيا ، كان قائداً لاجد جيوش الحملة الصليبية الأولى ، توفي سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠م . ينظر: (الصورة ، ١٩٩١م ، ج ٢ ، ص ١٥١). (153) -

ان الكتاب يعد تسجيلاً لحياة الملك لويس التاسع (جلال، ٢٠١٧م، ص٢)، الذي لم يكن قديساً مثالياً - بحسب جوانفيل - ولكن مؤمن مثالي، فهو رجل لا يحقق قائمة الفضائل تماماً، لكنه يعرف ما هي الحياة الفاضلة ويبدل قصارى جهده ليعيش وفقاً لهذه المعرفة RÜTH, (2017,p.126) ويصرح جوانفيل بهذا الأمر حين يقول : " وقد دونت هذه الأمور الأخرى كلها اجلالاً

لذلك القديس الصادق لأنها سوف تمكن الناس من ان يروا بجلاء أنه لم يوجد قط في أيامنا رجل علماني عاش العيشة الطاهرة التي عاشها الملك لويس منذ بداية حكمه حتى ختام حياته " (جوانفيل ، ١٩٦٨ م ، ص٢٦)، لذلك فإن جوانفيل يسهب في ذكر تفاصيل تتعلق بحياة الملك لويس ويكثر من مدحه والثناء عليه وتمجيد صفاته، ومؤلفه يعد سجل عظيم القيمة لتاريخ الملك لويس التاسع وفرنسا الإقطاعية والحرب الصليبية السابعة (غربال، ٢٠١٠م، مج ٣ ، ص ١٢٤٦)، وان الاستعارات الأدبية التي استعملها جوانفيل في قسم الحملة الصليبية تختلف بشكل ملحوظ عن تلك الموجودة في أقسام التأطير، ويُقال ان قسم الحملة الصليبية هو أكثر ارتباطاً بالأدب العالمي ، ولا سيما لغة تشانسون دي جي سيستي^(١٠)، بينما يدين القسمان الافتتاحي والختامي بالكثير للنماذج المقدسة مثل سير القديسين(RÜTH, 2017,p. 122)، وليس بالكتاب ما هو أكثر متعة ، وأحسن وصفاً للأحداث من الجزء المتعلق بالحروب الصليبية(العريني، ١٩٦٢م، ص ١٦٤)، لذلك يعتبر جوانفيل أفضل من أرخ للحملة الصليبية السابعة ولوقائعها وبتفصيل موثق (زكار، ١٩٩٩م، ج ٣٥ ، ص ٧)، وهو على الرغم من تحيزه الواضح لسيدته الملك لويس التاسع إلا أن كتابه يعد من أهم المصادر التاريخية التي دونت في العصور الوسطى عن الحروب الصليبية والتي تمثل وجهة النظر اللاتينية في رؤية أحداث تلك الحروب وملابساتها .

سادساً : وفاته

توفي جوانفيل في سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩م، بعد ان طال عمره، وحسنت اعماله، وجزت مواراته في كنيسة القديس لورنس(العريني، ١٩٦٢م، ص ١٥٩).

(١٠) تشانسون دي جيستي: هو نوع أدبي أوروبي من العصور الوسطى، إنها قصة متعددة الأجزاء (قصيدة طويلة) ، مشجعة (تنتهي بمقاطع لها نفس الصفة ، ذات حجم متغير) ، تسرد المآثر الحربية التي تنتمي ، في كثير من الاحيان الى وقت لاحق من الماضي . ينظر: https://fr.wikipedia.org/wiki/Chanson_de_geste

المبحث الثاني : وصف أحداث الحملة الصليبية السابعة على مصر من منظور جوانفيل

أولاً : وصول الفرنسيين الى الساحل المصري واحتلال دمياط

أبحر لويس التاسع بحملته من ميناء ليماسول^(١١) في قبرص^(١٢) في صفر ٦٤٧هـ/ أيار ١٢٤٩م متجهاً نحو السواحل المصرية بعد أن انضمت إليه معظم القوات الصليبية بالشرق (زيادة، ١٩٦١م، ص ٩٩؛ صيدم، ٢٠١٠م، ص ١٢٢)، وابتدأ جوانفيل بوصف أحداث هذه الحملة بذكر هذه الحادثة بقوله: " ما كاد يهل شهر مارس حتى أصدر الملك أمره إلى البارونات وغيرهم من الحجاج بوجوب إعداد السفن وإعادة شحنها بالخير والمئونة لتكون على اتم أهبة للرحيل حين يشير الملك بالرحيل ، فلما رأى لويس ان كل شيء تمّ على ما ينبغي استعد للسفر هو والملكة يوم الجمعة ... ، وأمر باروناته ان يسيروا في إثره ويبحروا رأساً الى مصر ، فكانت سفرته يوم السبت وبصحبته الجميع ، وما كان أبدع منظر البحر وهو يبدو للعيان - على امتداد البصر - مغطى بقلاع السفن التي بلغ عددها ألفاً وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة " (جوانفيل، ١٩٦٨م، ص ٩٠).

في هذا النص يصف جوانفيل كيفية انطلاق سفن الحملة الصليبية السابعة من ميناء ليماسول في قبرص نحو السواحل المصرية، ويذكر أن تعداد السفن المبحرة كان حوالي (١٨٠٠) قطعة بحرية كبيرة وصغيرة، وبذلك كان دقيقاً في تحديد عدد سفن الحملة. ثم يقول جوانفيل: "... هبت ريح عاصفة شديدة ، جاءت عبر البحر من اتجاه مصر، وبدأت بالهبوب بشكل بلغ من العنف ان سبعمائة من الألفين وثمانمائة فارس الذين كان الملك يصحبهم معه في هذه الحملة بقوا فقط ، ولم تفصلهم الريح عن جماعته ، ولم تحملهم الى عكا والى مراس اجنبية أخرى ، ولم يستطع هؤلاء الالتحاق بالملك إلا بعد مضي وقت طويل " (جوانفيل، ١٩٩٩م ، ج ٣٥ ، ص ٦٤).

يصف جوانفيل الرياح العاصفة التي هبت على السفن الصليبية في أول يوم لها في عرض البحر وشتت شملها ، حيث جنح معظمها صوب عكا وسواحل بلاد الشام ولم يصل مع لويس الى سواحل مصر سوى ثلث عدد فرسانه فقط ، ويعلق المستشرق رانسيمان على ذلك بالقول: "ولسوء الحظ ، هبت عاصفة بعد أيام قلائل بعثرت السفن ، وعندما أبحر الملك نفسه ... لم يبحر معه سوى ربع جيشه، وأبحر باقي الجيش بصورة مستقلة قاصداً الساحل المصري" (رانسيومان ، ١٩٩٨م ، ج ٣ ، ص ٣١٣).

(١١) ليماسول : مدينة تقع في اقصى الناحية الجنوبية من جزيرة قبرص ، وميناء من موانئ البحر المتوسط . ينظر: (غريبال، ٢٠١٠م، مج ٦ ، ص ٢٩٣٧).

(١٢) قبرص : وهي جزيرة في بحر الروم (البحر المتوسط) وبأيديهم دورها مسيرة ستة عشر يوماً . ينظر: (الحموي ، ١٩٧٧م ، ج ٤ ، ص ٣٠٥).

ثم يصف جوانفيل وصولهم الى الساحل المصري قائلاً: " ... وصل الملك إمام دمياط وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان، وهي كتائب يستحب النظر إليها، فقد كانت أسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة في سامعيها " (جوانفيل، ١٩٦٨م، ص ٩١).

يصف جوانفيل الرهبة التي استولت على رجال الحملة الصليبية السابعة عند رؤيتهم قوات السلطان الصالح نجم الدين أيوب^(١٣)، تنتظرهم عند الساحل وهي مستعدة لمحاربتهم، وان استعمال جوانفيل لمصطلحات الدرع اللامع والرنين المعدني للجيش في كتابة سيرته تعزز الأوصاف المستوحاة من انشودة رولاند حسب رأي المؤرخ أكسل روث ٢٠١٧ (p.132)، أي أنه قد تأثر بالأساليب الشائعة في عصره.

ويصف جوانفيل نزولهم على الساحل بقوله: " وحينما سمع الملك بأن راية القديس دنيس صارت على الشاطئ، سار مسرعاً بسفينته، ولم يصغ سمعاً الى القس الذي كان معه، بل قفز الى الماء الذي بلغ إبطيه، ومضى على هذا النحو معلقاً درعه في رقبته وخوذته على رأسه ورمحه بيده، حتى وصل الى رجاله الواقفين على الشاطئ " (جوانفيل، ١٩٦٨م، ص ٩٥ - ٩٦).

ثم يذكر احتلالهم لمدينة دمياط: " ... وهكذا تخلى المسلمون عن دمياط وبعث الملك بواحد من الفرسان ليتحقق ... وقد عاد ليخبر الملك بأنه قد دخل الى قصر السلطان، وأكد بان التقرير كان صحيحاً ... وامتطى الملك بعد هذا فرسه، وحذا البقية حذوه، وزحفنا جميعاً، وعسكرنا أمام مدينة دمياط. وتصرف الترك بشكل غير حكيم بتخليهم عن دمياط، من دون قطعهم لجسر القوارب لأنهم لو فعلوا ذلك لأعاقونا كثيراً " (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج ٣٥، ص ٦٩).

يصف جوانفيل عملية دخول الصليبيين إلى دمياط وينتقد تصرف المماليك الغير حكيم بعدم قطعهم جسر القوارب، وهو بذلك يتفق مع المصادر الإسلامية بهذا الأمر (أبو الفداء، د.ت، ج ٣، ص ٢١٦؛ ابن كثير، ١٩٩٨م، ج ١٧، ص ٣٠٤؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج ٦، ص ٢٩٢-٢٩٣) ويفصل رنسيان في شرح كيفية حدوث ذلك بقوله: " وبهبوط الظلام سحب فخر الدين^(١٤) رجاله وعبر جسر القوارب إلى دمياط التي وجد سكانها في

^(١٣) هو أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦٠٣-٦٤٧هـ/١٢٠٦-١٢٤٩م)، تولى السلطنة بمصر عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م فحكمها حتى وفاته عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، ويعد من كبار الملوك الأيوبيين. في ترجمته ينظر: (أبو شامة، ١٩٧٤م، ص ١٨٣؛ ابن واصل، ١٩٥٨م، ج ٤، ص ٢٢٥-٢٢٦، ج ٥، ص ٢٦٥-٢٧٠؛ ابن العماد الحنبلي، ١٩٩٢م، ج ٧، ص ٤١١). 412-

^(١٤) هو فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، كان قائد العسكر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، توفي مقتولاً من خلال الفرنجة سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م. للمزيد عن ترجمته ينظر: (الذهبي، ١٩٨٣م، ج ٢٣، ص ١٠٠). 102-

حالة من الذعر والحامية تتخاذل فقرر إخلاء المدينة وهرب معه كل السكان المسلمين، وتبعهم بنو كنانة^(١٥) بعد ان أشعلوا النيران في الأسواق، لكنهم أهملوا أوامره بتدمير جسر القوارب ، وفي صباح اليوم التالي علم الصليبيون من المسيحيين الذين بقوا في منازلهم ان دمياط بلا دفاع فعبروا في انتصارهم الجسر ودخلوا المدينة (رانسيان، ١٩٩٨م، ج٣، ص ٣١٤)، وهكذا استولى الفرنسيون على دمياط في حزيران ١٢٤٩م تقريباً بدون قتال (RÜTH,2017,p. 121).

بينما تصف المصادر العربية وصول الفرنجة إلى سواحل مصر : " وتواترت الأخبار بأن ريذا فرنس " ويقصد به الملك لويس التاسع " مقدم الافرنسيية قد خرج من بلاده في جموع عظيمة وشتى بجزيرة قيرص ، وكان أعظم ملوك الفرنج وأشدهم بأساً - وريدا بلغتهم هو : الملك ، فشحت دمياط بالذخائر وأحكمت الشواني^(١٦)، ونزل فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر على جزيرة دمياط ، فأقبلت مراكب الفرنج ... ثم شرعوا من الغد في النزول الى البر الذي فيه المسلمون وضربت خيمة حمراء لريدا فرانس وناوشهم المسلمون القتال ... فترحل فخر الدين ابن الشيخ بالناس ، وتقهر إلى أشمون طنناح^(١٧)، ووقع الخذلان على أهل دمياط ، فخرجوا منها طوال الليل على وجههم حتى لم يبق بها أحد ، وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين ... فلما أصبحت الفرنج ملكوها صفواً بما حوت من العدد والأسلحة والذخائر والغلال والمجانيق " (أبو الفداء ، د.ت، ج٣، ص٢١٦؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠م، ج٥، ص٤١٥؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج٦، ص٢٩٢-٢٩٣)، ويقول المستشرق زابوروف : " نزل الصليبيون في مصب نهر النيل ، وأشاعوا الذعر بين سكان دمياط واحتلوا المدينة عنوة وعملياً بدون أي قتال جدي ، وغنموا غنائم وفيرة " (١٩٨٦م، ص٣١٥).

واستقبل السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي كان مريضاً انباء سقوط المدينة التي حرص على تحصينها بمزيج من المرارة والألم والغضب، فعاتب قادة الحامية المنسحبة بكلمات مريرة عنيفة، واعدماً عدداً من فرسان بني كنانة الفارين " ولامهم على ترك المصابرة قليلاً ليرهبوا عدو الله وعدوهم" ، ولكنه لم يستسلم للهزيمة ، وانتقل الى المنصورة (ابن كثير، ١٩٩٨م، ج١٧، ص٣٠٤؛ قاسم وعلي، د.ت، ص١٠٦؛ عمران، ٢٠٠٠م، ص٣١٠).

(١٥) بنو كنانة: إحدى القبائل العربية التي استقرت بمصر مع بقايا العرب الذين وفدوا إليها وشهدوا الفتح الإسلامي لها على يد عمرو بن العاص. ينظر: (صيدم، ٢٠١٠، ص١٢١ هامش ٤).

(١٦) الشواني: مفرد شيني، وهي سفينة حربية كبيرة الحجم ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم. ينظر: (المغلوث، ٢٠١٣م، ص٢٧١).

(١٧) أشمون طنناح: أو أشموم طنناح: بلدة قرب دمياط. ينظر: (الحموي، ١٩٧٧م، ج١، ص٢٠٠).

يقول ابن تغري بردي عن ذلك: "... وسار الى المنصورة فنزل بها في المنزلة التي كان أبوه قد نزلها، وبها قصر بناه أبوه الكامل^(١٨)، ووقع النفير العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوعة والعربان، وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطفهم، واستمر ذلك شهراً" (ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج٦، ص٢٩٣).

ويصف جوانفيل حرب العصابات التي شنّها المسلمون على معسكر الصليبيين في دمياط بقوله: "كان المسلمون يدخلون معسكرنا - كل ليلة - مترجلين ويقتلون من يجدونهم نائمين من رجالنا، وقد حدث ان قتلوا حارس لورد كورتي وتركوه على إحدى المناضد بعد أن جزوا عنقه وأخذوها معهم، وقد حملهم على ذلك العمل أن السلطان كان يعطي ديناراً من الذهب لكل من يأتيه برأس نصراني" (جوانفيل، ١٩٦٨م، ص١٠١).

ومن هذا يتضح أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب لم يكتفِ بتنظيم صفوف جيشه في المنصورة بل أمر عساكره بشن غارات فدائية ليلية جريئة على معسكر الفرنجة ومنح مكافآت مالية سخية عن كل رأس من رؤوس الصليبيين يأتيه به أحد من رجاله.

يقول رنسيان عن ذلك: "وانطلق رجال حرب العصابات البدو في المناطق المحيطة، وكانوا يتسللون حتى أسوار دمياط، يقتلون الفرنج الشاردين خارجها، واضطر لويس إلى إنشاء السدود وحفر الخنادق لحماية معسكره" (١٩٩٨م، ج٣، ص٣١٥)، وبذلك فقد اتفق جوانفيل مع المصادر الإسلامية حول حرب العصابات التي شنّها العرب المسلمون على المعسكر الفرنجي الصليبي بدمياط.

ثانياً: وصف معركة المنصورة

خرج الصليبيون من دمياط يوم ١٢ شعبان ٦٤٧هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م و زحفوا جنوباً في البر والنهر، على طريق الحملة الصليبية الخامسة نفسه وفي دمياط بقيت حامية عسكرية قوية ومعها الملكة (أبو الفداء، د.ت، ج٣، ص٢١٨؛ زيادة، ١٩٦١م، ص١٢٥-١٢٦)، وعن ذلك يقول جوانفيل " ... انطلق الملك مع جيشه للذهاب إلى القاهرة" (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص٧٨).

وربما أعجلت قرارات هذا الزحف وفاة السلطان الصالح أيوب، إذ لفظ أنفاسه الأخيرة بالقصر الكاملي بالمنصورة يوم الاثنين ٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩م، الموافق ليلة النصف من شعبان ٦٤٧ هـ، أي بعد ثلاثة أيام من زحف حملة لويس التاسع من دمياط جنوباً نحو القاهرة (أبو الفداء، د.ت، ج٣، ص٢١٧؛ ابن كثير، ج١٧، ١٩٩٨م، ص٣٠٤؛ ابن

(١٨) ابو المعالي محمد بن العادل أبو بكر بن أيوب (٥٧٣ - ٦٣٥هـ / ١١٧٧ - ١٢٣٧م)، كان ملكاً شجاعاً حسن التدبير، توفي بدمشق سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م. ينظر: (ابن خلكان، ١٩٩٤م، ج٤، ص١٧١-١٧٥؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج٦، ص١٤٤-١٤٧).

تغري بردي، ١٩٩٢م، ج ٦، ص ٣٢٢؛ زيادة، ١٩٦١م، ص ١٢٦)، ان وفاة ذلك السلطان أفسحت المجال لظهور قوة المماليك وعجز الأيوبيين بشكل خاص (قاسم وعلي، د.ت، ص ١٠٧).

وكان السلطان الصالح أيوب قد عهد بالسلطنة لولده المعظم توران شاه^(١٩) الذي كان شاباً حديث السن قليل الخبرة، ويبدو أن السلطان قد رتب كل أمور الحكم مع زوجته شجرة الدر^(٢٠)، التي أرسلت الى توران شاه تحته على الرحيل من ولايته في حصن كيفا^(٢١) بأطراف العراق والقُدوم الى مصر ليعتلي عرش السلطنة بعد أبيه الراحل (أبو الفداء، د.ت، ج ٣، ص ٢١٨؛ ابن كثير، ١٩٩٨م، ج ١٧، ص ٣٠٤-٣٠٥؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج ٦، ص ٣٢٢؛ قاسم و علي، د.ت، ص ١٠٧-١٠٨).

وعبر النيل، عند أشموم طنّاح، شمال شرق المنصورة أقام الصليبيون معسكرهم في مواجهة المعسكر المصري، وفي خلال الأيام التي سبقت المواجهة الحاسمة بين الطرفين، أمطر المصريون المعسكر الصليبي بوابل من القذائف الملتهبة التي عرفت في تلك العصور باسم النار الاغريقية (قاسم و علي، د.ت، ص ١٠٨)، ويصف جوائفيل ذلك قائلاً: " وكانت النار الإغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار، ذات ذنب يقارب الرمح طولاً، وكان يصحبها صوت هائل كدوي الرعد، وكأنها طائر في الجو، تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء كأنه في وضح النهار، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة " (جوائفيل، ١٩٦٨م، ص ١١٠).

وكان لهذه القذائف أثرها من حيث تدمير الكثير من معدات الصليبيين (قاسم وعلي، د.ت، ص ١٠٩)، وأراد الملك لويس التاسع بناء جسر على بحر اشموم لكي تعبر قواته الى الضفة الجنوبية لبحر أشموم حيث يقع المعسكر الإسلامي في المنصورة، وبدأ الصليبيون ببناء الجسر ولكنهم لم يكادوا يتمون بضعة أمتار منه إلا وتعرضوا لوابل من قذائف المجانيق فضلاً عن قذائف النار الإغريقية التي أنزلت الرعب في قلوبهم (يوسف،

^(١٩) هو الملك المعظم غياث الدين تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب، آخر سلاطين الأيوبيين بمصر، قتله المماليك عام ١٢٥٠/٦٤٨م، ولم يتجاوز الثلاثين عاماً، بمقتله انقضت دولة بني أيوب بمصر. للمزيد عن سيرته ينظر: (العيني، ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٢٣؛ ابن العماد الحنبلي، ١٩٩٢م، ج ٧، ص ٤١٧-٤١٨).

^(٢٠) شجرة الدر أو شجر الدر بنت عبد الله جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل، كانت بارعة الحسن ذات ذكاء وعقل ودهاء، توفيت مقتولة سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٧م. ينظر: (ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج ٦، ص ٣٣٢-٣٣٧؛ ابن العماد الحنبلي، ١٩٩٢م، ج ٧، ص ٤٦٢). (464-^(٢١) حصن كيفا: وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. ينظر: (الحموي، ١٩٧٧م، ج ٢، ص ٢٦٥).

د.ت، ص ٤٣؛ زيادة، ١٩٦١ م، ص ١٣٤؛ عمران، ٢٠٠٠ م، ص ٣١١؛ صيدم، ٢٠١٠ م، ص ١٣٥).

ويروي جوائفيل عن ذلك " فلما رأى المسلمون ما كان يجري، ورتبوا صفوفهم، وَصَفُوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمي الجسر فتصيبه هو والبرج، ولما رأوا إجماع رجالنا عن الذهاب الى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأنت عليه كله " (جوائفيل، ١٩٦٨ م، ص ١١٢).

ويذكر رنسيما ذلك بقوله: " وفي تلك الأثناء أمر لويس ببناء سد يعبرون القناة من فوقه، غير أنه على الرغم من بنائه سقائف لحماية العمال، كان القصف المصري من الضفة المقابلة، لاسيما باستعمال النار الإغريقية هائلاً بحيث تم التخلي عن بناء السد " (١٩٩٨ م، ج ٣، ص ٣١٧).

واستدعى لويس التاسع بارونات الجيش والقادة، وعقد اجتماعاً للبحث فيما ينبغي اتخاذه بعد أن اتضح استحالة بناء جسر للعبور الى معسكر المنصورة وبينما المناقشة تجري، حضر أحد الخونة من الإعراب ودل الصليبيين على مخاضة سرية يستطيعون عبور بحر أشموم منها مقابل مبلغ من المال (صيدم، ٢٠١٠ م، ص ١٣٥؛ عمران ٢٠٠٠ م، ص ٣١١)، ويقول جوائفيل عن ذلك: " دعا الملك إليه جميع البارونات وطلب منهم مشورتهم وقد وافقوا بالإجماع على القول انه لا فائدة من محاولة بناء جسر يمكنهم عليه الزحف ضد المسلمين والاقتراب منهم، ... أخبر الملك أن بدوياً قد جاء إليه وأخبره أنه يمكنه أن يرينا مخاضة جيدة، شريطة أن نعطيه خمسمائة دينار، وقال الملك بأنه موافق على دفع المال له " (جوائفيل، ١٩٩٩ م، ج ٣٥، ص ٨٧-٨٨).

وأكد المقريري ذلك: " دل منافقي بعض أهل الاسلام الفرنج على مخاض في بحر أشموم " (المقريري، ١٩٩٧ م، ج ١، ص ٤٤٧)، وذكر المستشرق رنسيما: " جاء الى معسكر الملك قبضي من سلمون، وعرض أن يكشف لهم عن مخاضة لعبور البحر الصغير لقاء حصوله على ٥٠٠ بيزنت^(٢٢) " (١٩٩٨ م، ج ٣، ص ٣١٧)، ويقول زايبوروف: " وساعدتهم الخيانة " (الصليبيون في الشرق، ص ٣١٥)، وبذلك اتفقت المصادر اللاتينية والإسلامية على ان الخيانة كانت سبباً في تمكين الصليبيين من عبور بحر أشموم إلى المعسكر الإسلامي في المنصورة، إذ عبر الفرنجة بحر أشموم من تلك المخاضة التي دلهم عليها ذلك الخائن، وشنوا هجوماً مباغتاً على معسكر المسلمين، وقتل في هذا الهجوم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وكثير من الفرسان، وتفرق المسلمون يميناً وشمالاً (الحويري، ١٩٩٦ م، ص ٢١٦-٢١٧؛ عاشور، ١٩٧٢ م، ص ١١١-١١٢)، ويصف

^(٢٢) بيزنت: وهي عملة ذهبية بيزنطية. ينظر: (غنيم، ١٩٩٠ م، ص ١٢٥).

جوانفيل عبورهم قائلاً : " ... وهكذا عبرنا - والحمد للرب - من دون أن يسقط واحد من مجموعتنا، وما أن رآها المسلمون قد عبرنا النهر حتى شرعوا بالفرار" (جوانفيل، ١٩٩٩ م ، ج٣٥، ص٨٨).

ويتفق المقرئ معه حيث يقول : " فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم في المعسكر، وكان الأمير فخر الدين في الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر فخرج مدهوشاً وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ ... وليس معه سوى بعض مماليكه و أجناده فلقية الفرنج الداوية^(٢٣) وحملوا عليه ، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه، فطعنه واحد برمح في جنبه ، واعتبرته السيوف من كل ناحية فمات رحمه الله ونزل الفرنج على جديلة^(٢٤)، وكانوا الفأ وأربعمائة فارس" (المقرئ، ١٩٩٧ م، ج١، ص٤٤٧ ؛ يقارن بأبي الفداء، د.ت، ج٣، ص٢١٨).

ويشير رنسيما إلى هذا الأمر بالقول: " بوغت المصريين بخيالة الفرنج تزجر في وسطهم فجأة، وقتل الكثير منهم عندما هرعوا لأخذ اسلحتهم، وهرب آخرون في نصف ملابسهم إلى حيث الأمان في المنصورة" (١٩٩٨ ، ج٣ ، ص٣١٨)، واغتر الصليبيون بهذا النصر الجزئي فتقدموا نحو المنصورة ، واندفعت فرقة من فرسان الصليبيين يقودهم شقيق الملك إلى داخل المدينة واوغلوا في طرقاتها في تلك الاثناء استطاع المماليك البحرية بزعامه بيبرس البندقداري^(٢٥) ان يستجمعوا قواهم ويوحدوا صفوف الجند بعد موت فخر الدين بن شيخ الشيوخ فخرج المماليك البحرية من كمانهم و أطبقوا على الصليبيين وسدوا عليهم الطرق والمنافذ وحدثت معركة فاصلة مع الصليبيين سميت بمعركة المنصورة انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً في يوم الجمعة السابع من ذي القعدة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ م ، وقد أسهم أهالي المنصورة بنصيب وافر في اباده الفرسان الفرنج المبعثرين في مدينتهم عن طريق سد الطرق بكتل من الخشب فضلاً عن رميهم الفرنجة بالحجارة والطوب وغير ذلك من شبابيك البيوت وسطوحها وأخذت السيوف الفرنجة من كل جانب ولم يفلت منهم إلا عدد قليل من الفرسان فروا راجلين الى ضفاف النيل " وحملت المسلمون والترك البحرية على

(٢٣) الداوية : او فرسان المعبد knights of Templars وهي إحدى المنظمات الدينية - العسكرية تأسست عام ٥١٢هـ/ ١١١٨ م على يد جماعة من الفرسان الفرنسيين، وكانت منذ نشأتها هيئة عسكرية بحتة قامت اساساً لمحاربة المسلمين وحراسة الحجاج الغربيين المسافرين إلى الأماكن المقدسة . للمزيد عنها ينظر: (الصوري، ١٩٩١ م، ج٢، ص٣٤٥-٣٤٦؛ مقامي، ١٩٩٤ م، ص١٥-١٨ ؛ - Martin,2004,p.15

١٦).
(٢٤) جديلة : هي تل مطل على الشاطئ الجنوبي لبحر أشموم . ينظر: (المقرئ، ١٩٩٧ م، ج١ ، ص٤٤٧ هامش ٢).

(٢٥) الظاهر ركن الدين بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام، أحرز انتصارات عديدة على الصليبيين والمغول ، توفي بدمشق عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٨ م . ينظر في ترجمته: (أبن تغري بردي، ١٩٩٢ م، ج٧، ص٨٦-٩٤ ؛ ابن العماد الحنبلي، ١٩٩٢ م، ج٧، ص

الفرنج فردوهم على أعقابهم واستمرت بهم الهزيمة " (أبو الفداء، د.ت، ج٣، ص٢١٨؛ الحويري، ١٩٦٦م، ص ٢١٧؛ يوسف، د.ت، ص ٥٤-٥٥؛ عمران، ٢٠٠٠م، ص٣١٢). ويروي المقرئ عن هذه المعركة: "... وأخرج الى الفرنج الطائفة التركية، التي تعرف بالبحرية وفيهم، ركن الدين بيبرس البندقداري ... فحملوا على الفرنج حملة زعزعوا بها، وأزاحوهم فلما ولو اخذتهم السيوف والدبابيس حتى قتل منهم في هذه النوبة نحو ألف وخمسائة من أعيانهم وشجعانهم ... فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج" (المقرئ، ١٩٩٧م، ج١، ص ٤٤٨).

بينما يصف جوانفيل هذه المعركة محاولاً إضفاء هالة من البطولة والشجاعة على أبناء جلدته لتبرير هزيمتهم الفادحة إذ يقول: "... قام الفرسان الجيدون الذين كانوا في فرقته ... بالانقضاء مباشرة على المسلمين، وأكد لكم أنه أعقب ذلك ملحمة رائعة، وامتحاناً رائعاً للسلاح، لأن ما من واحد استخدم قوساً أو زنبورك^(٢٦)، بل كانت المعركة معركة رماح ضد سيوف بين المسلمين وبين شعبنا، وقد انخرط فيها الطرفان بشكل عنيف جداً" (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص٩٢-٩٣).

ويتحدث رنسيما عن هذه المعركة قائلاً: "وعندما اندفع فرسان الفرنج الى أسوار القلعة ذاتها وفرسان المعبد في ذيلهم، خرج المماليك من الشوارع الجانبية وانقضوا عليهم كالصواعق" (١٩٩٨م، ج٣، ص٣١٨)، ويؤكد زابوروف ذلك: "ولكن سرعان ما أفلح المسلمون في حصر الغزاة في المدينة، ... وقد لقي كثيرون من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسن لهم اللجوء الى القلعة مصرعهم، وسقط بضع مئات من الصليبيين أثناء القتال" (١٩٨٦م، ص٣١٥).

ويصف جوانفيل فرار الصليبيين من مدينة المنصورة قائلاً: "وفي أثناء مجريات معركة ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الناس، ومن ذوي المظهر الجميل أيضاً، الذين جاءوا مجلّين بالعار فارين عبر الجسر الصغير الذي حدثتكم عنه، وقد هربوا والفرع قد استولى عليهم واستبد بهم، حتى ان محاولاتنا لجعلهم يقيمون معنا تبددت من دون فائدة، وبإمكانني اخباركم ببعض اسمائهم، لكنني سأمتنع عن ذلك لأنهم أموات الآن" (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص٩٨-٩٩).

وعلى الرغم من محاولة جوانفيل اضفاء صفة البطولة والاقدام على قتال قومه في المنصورة إلا أنه يضطر إلى الاعتراف بهزيمتهم النكراء، وبذلك هو يتفق مع المصادر العربية الإسلامية حول ان الصليبيين قد تكبدوا خسائر كبيرة في هذه المعركة ولاذوا بالفرار الى معسكر ملكهم لويس التاسع وقد تابعته في ذلك أيضاً بعض المراجع الاستشراقية .

^(٢٦) زنبورك : وهو نوع من القسي. ينظر: (ابن العديم، د.ت، ص ٣٩١).

ثالثاً: وصف وقوع الفرنسيين في الأسر

بعد معركة المنصورة أخذ موقف الصليبيين يزداد سوءاً، بسبب قلة المؤن وانتشار الأوبئة والأمراض في معسكرهم ، حتى ان لويس نفسه لم يسلم من المرض، يقول جوانفيل: " وكان نوع السمك الوحيد الذي أكلناه طوال الصوم الكبير، هو أفاعي الماء، لأنها كانت مخلوقات شرهة ، تتغذى على جثث الأموات، وبسبب هذه الأوضاع السيئة ونتيجة للمناخ غير الصحي انتشر وباء مروع في جميع أنحاء الجيش"(المصدر نفسه، ج ٣٥، ص ١١٣). وفي هذا الوقت وصل تورانشاه إلى المعسكر الإسلامي في المنصورة في ذي القعدة من سنة ٦٤٧هـ/ أواخر شباط ١٢٥٠م ، بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق أثناء طريقه إلى القاهرة، وقد ادى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين، " فيتامين الناس بطلعته" (المقريزي، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٤٨-٤٤٩ ؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢م، ج ٦، ص ٣٢٢ ؛ عاشور، ١٩٧٢، ص ١١٣)، وقد أمر بسحب عدد من المراكب الراسية جنوباً، وتفكيكها لتحمل قطعاً على ظهور الجمال ثم أعيد تركيبها وأنزلت في الماء شمالي موضع الصليبيين ، لقطع الطريق على السفن الآتية المؤن والإمدادات من دمياط إلى معسكر الصليبيين(المقريزي ، ١٩٩٧م ، ج ١، ص ٤٥٠ ؛ الحويري، ١٩٩٦م، ص ٢١٨)، يقول أبو الفداء : " ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً ، ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركباً منها تسع شواني فضعت الفرنج لذلك " (د.ت، ج ٣، ص ٢١٨)، ويؤكد جوانفيل هذا الأمر بقوله : "وقام المسلمون بعد مضي اسبوعين بإجراء سبب صدمة هائلة لشعبنا، فمن أجل اجاعتنا حملوا عدداً من غلايينهم^(٢٧) التي كانت تطفوا فوق سطح الماء قرب معسكرنا، وبعدما سحبوها فوق اليابسة أعادوا انزالها الى النهر، على بعد فرسخ دون المكان الذي كانت خيمنا منصوبة فيه، وسببت هذه الغلاييني حدوث مجاعة بيننا، فبسببهم لم يعد أحد يتجرأ على القدوم عبر النهر من دمياط ليجلب لنا ميرة جديدة وأطعمة " (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج ٣٥، ص ١١٣-١١٤).

ويتابعه رانسيما قائلاً: " وأمر تورانشاه بصنع أسطول من القوارب الخفيفة نقلت على ظهور الأبل الى منافذ النيل السفلى في المنطقة ، حيث انطلقت لتبدأ اعتراض السفن التي تجلب الطعام الى معسكر الصليبيين من دمياط " (١٩٩٨م، ج ٣ ، ص ٣٢٠)، وبذلك اتفقت المصادر الإسلامية واللاتينية على هذا التكتيك العسكري الذي اتبعه المسلمين بأمر من سلطانهم الجديد تورانشاه من أجل تشديد الحصار على معسكر الصليبيين وقطع الامدادات والمؤن عنهم .

^(٢٧)الغلاييني: هي مراكب خشبية مستديرة، تعتمد على التجديف. ينظر:(زكار، سهيل، ١٩٩٩م، ج ٣٦، ص ١٥٦).

ووسط تلك الظروف القاسية التي أحاطت بعاقل فرنسا، استقر رأيه في محرم عام ٦٤٨هـ/ نيسان عام ١٢٥٠م على التراجع بقواته إلى دمياط وعن ذلك كتب جوانفيل: " وعندما لاحظ الملك ، بعد طول لأي ، أنه ورجاله يمكنهم البقاء فقط ليموتوا، أتخذ قراره بالمغادرة ، وأصدر أوامره إلى الجيش بتقويض المعسكر في أواخر الليل ... والعودة الى دمياط ، وأرسل يخبر الرجال الذين كانوا مسؤولين عن الغلاييني أن يقوموا بجمع المرضى وحملهم إلى المدينة"(جوانفيل، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص ١١٨). غير أن المماليك لم يتركوا الصليبيين يتراجعون في سهولة، بل عملوا على مطاردتهم وعند فارسكور^(٢٨)، اطبق المماليك على الجيش الصليبي، فحلت به هزيمة ساحقة، ويروي أبو الفداء عن ذلك: " لما قام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت ازوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم، فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم متوجهين الى دمياط ، وركب المسلمون اكتافهم، ولما استقر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم الا القليل وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفاً " (أبو الفداء، د.ت، ج٣، ص ٢١٩).

ويؤكد ابن تغري بردي ما رواه جوانفيل عن قرار الانسحاب الى دمياط قائلاً: "... وعزم ملكهم الفرنسيين على أن يركب في أول الليل ويسير الى دمياط، فعلم المسلمون بذلك، وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسوها عن قطعة ، فعبر منه المسلمون في الليل الى برهم ، وخيامهم على حالها وثقلهم، وأحرق المسلمون بهم يخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً " (١٩٩٢م، ج٦، ص ٣٢٣). ويفصل المقرئ في شرح ذلك حيث يقول: "... وقد احاط بهم المسلمون، وبذلوا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم قتلاً وأسراً، وكان معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدة القتلى عشرة آلاف في قول المقل، وثلاثين ألفاً في قول المكث، وأسروا من خيالة الفرنج ورجالهم المقاتلة، وصناعتهم وسوقتهم، ما يناهز مائة ألف إنسان ... والتجأ الملك ريدا فرنس (لويس التاسع) وعدة من أكابر قومه الى تل المنية^(٢٩)، وطلبوا الأمان ، فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي^(٣٠)، ونزلوا على

^(٢٨) فارسكور: او الفارسكور من قرى مصر قرب دمياط من كورة الدقهلية. ينظر: (الحموي، ١٩٧٧م، ج٤، ص ٢٢٨).

^(٢٩) تل المنية : المقصود بها منية عبد الله، القريبة من ناحية شرمساح . ينظر: (المقرئ، ١٩٩٧م، ج١، ص ٤٥٥ هامش ١).

^(٣٠) هو الطواشي جمال الدين محسن الصالحي النجمي، شيخ الخدام بالمسجد النبوي توفي سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، والطواشي هو لقب عام للخصيان من الغلمان كان يطلق على جند الأمراء . ينظر: (المقرئ، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٦٦ ؛ الباشا، ١٩٨٩م، ص ٣٨٢).

أمانه وأخذوا الى المنصورة ، فقيد الملك ريذا فرنس ب قيد من حديد ، واعتقل في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان^(٣١) كاتب الإنشاء " (المقريزي، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٥٥).

ويروي جوانفيل عن ذلك : " قال بأنه - لويس التاسع - شخصياً كان يمتطي على ظهر مهر صغير ، وعليه برذعة من الحرير، ... أنه لم يبق معه من فرسانه وجنوده سوى جيفري دي سرجين ، وقد اخذني الى قرية صغيرة كانت في الحقيقة هي القرية التي أسر فيها أخيراً" (جوانفيل، ١٩٩٩م، ج ٣٥، ص ١١٩).

ويقول زابوروف عن هزيمة الصليبيين: " وتحت طائلة الموت جوعاً أسرع الصليبيون في الجلاء عن المنصورة ، فقد فروا منها براً وبحراً ونهراً ، وكان العدو يطاردهم ويفتك بهم ، وقد زال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة ، ووقع في الأسر آلاف الفرسان وحملة سلاحهم ، وفي عداد الأسرى كان لويس التاسع ذاته مع أخويه " (١٩٨٦م ، ص ٣١٦).

ويورد جوانفيل رواية مخالفة لما ورد في المصادر العربية الإسلامية بأن هزيمة الصليبيين وأسره في قرية منية أبي عبد الله كانت بسبب جندي خائن منهم حيث يذكر: " وحدث في الوقت نفسه حادث شؤم سبب كارثة لشعبنا، فقد قام سير جندي خائن منا اسمه مارسيل وشرع يصرخ في الجيش ويقول لأفراده: استسلموا أيها الفرسان ، لأن الملك قد أمر بذلك ولا تكونوا سبباً في قتله وقد اعتقد كل إنسان بأن الملك قد أصدر بالفعل هذه الأوامر ، وهكذا سلموا سيوفهم الى المسلمين ... وهكذا سارت الأمور ووقع جميع رجالنا بالأسر" (جوان فيل ، ١٩٩٩م، ج ٣٥، ص ١٢٠).

ويتابعه بذكر هذه الرواية أيضاً رنسيما ب قوله : " ... انطلق على جواده واحد من مساعدي الفرسان يدعى مارسيل بين صفوف المسيحيين - وقد رشاه المصريون على ما يُظن - صائحاً في القادة باسم الملك أن يستسلموا دون شرط ، وأطيعوا الأوامر التي لم يكن لويس نفسه يعرف عنها شيئاً ، وألقوا أسلحتهم ، وأحيط بالجيش كله واقتيد الى الأسر " (١٩٩٨م ، ج ٣ ، ص ٣٢١).

يحاول جوانفيل بهذه الرواية أن يبرر سبب هزيمة الصليبيين واستسلامهم ووقوعهم في الأسر بما يحفظ ماء وجوههم ، وقد اعتمد على هذه الرواية المستشرق رانسيما ب، وعلى ما يبدو أن هذه الرواية مفتعلة إذ لا يوجد ذكر لها في المصادر العربية الإسلامية، كما لم يذكرها المستشرق زابوروف، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الظروف التي كانت محيطة بالصليبيين وسوء أحوالهم كانت مقدمات لهذه النتيجة الطبيعية في نهاية المطاف.

(٣١) أبو العباس إبراهيم بن لقمان بن أحمد الشيباني الإسعدي ثم المصري، كان والده قاضياً لمدينة داريا في الشام، وهو وزير من الكتاب، توفي سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م . ينظر: (أبن تغري بردي ، ١٩٩٢م ، ج ٨ ، ص ٤٢-٤٣ ؛ الزركلي، ٢٠٠٥م، ج ١، ص ٥٨).

رابعاً: وصف المماليك البحرية

يقول جوانفيل واصفاً المماليك البحرية: " نحن نعلم بشكل مؤكد أن معظم الشخصيات القيادية في جيوشهم " أي الأيوبيين " كانوا من الأجانب ، الذين جلبهم التجار من بلدان أخرى لبيعهم، وهم الذين كان المسلمون يقبلون بسرور على شرائهم ، حتى مقابل أسعار عالية جداً وجلب هؤلاء الناس ... بالغالب من الشرق وكان هؤلاء الغلمان يعرفون باسم البحرية (او الناس من البحر) وكانوا يتمتعون بامتياز ارتداء دروع الرنوك نفسها - التي كانت من الذهب - مثلما يرتدي السلطان نفسه، وما إن كانت لحاهم تبدأ بالنمو ، حتى كان يجعلهم فرساناً "(جوانفيل، ١٩٩٩م، ج٣٥، ص ١١٠).

ويقول عنهم أيضاً: " وهم يعرفون الآن باسم جند الحلقة او الحرس الملكي لأنهم ينامون في خيم السلطان ، وكانوا يعطون ، عندما يكون في المعسكر أماكن مجاورة له ، يتولون حراسته شخصياً " (المصدر نفسه ، ج ٣٥ ، ص ١١١).

يتحدث جوانفيل عن المماليك البحرية الذين أكثر الصالح نجم الدين أيوب من شرائهم الى درجة أنهم أصبحوا احدى تشكيلات الجيش الجديدة التي يتكون منها الجيش الأيوبي(فلح، ٢٠١٣م، ص ١٨). ويقول المستشرق رنسيما عن ذلك : " أن أهمية وقوة هذا الجيش الضخم من الأتراك والجراسقة قد تعاضمت اثناء حكم أيوب الذي كان يشملهم برعايته فكافئوه بإخلاصهم له " (١٩٩٨م ، ج ٣ ، ص ٣٢٣).

أما عن سبب تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم ، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك ، المجلوبين من بلاد القفجاق - شمالي البحر الأسود - ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين(عاشور، ١٩٧٢م، ص ١٥٣)، وقد امتازوا بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس ، فضلاً عن الشجاعة النادرة (المرجع نفسه ، ص ١٥٣).

الخاتمة

تبين لنا من خلال هذا البحث ما يأتي :

- أن المؤرخ الفرنسي جوانفيل هو من عائلة اقطاعية فرنسية مقربة من الأسرة الحاكمة في فرنسا ، وكان لأفرادها دور مهم في الاشتراك في الحملات الصليبية ضد المشرق الإسلامي.
- كان جوانفيل شخصاً مقرباً من الملك الفرنسي لويس التاسع ومرافقاً له في الحملة الصليبية السابعة التي توجهت لغزو مصر ، وكان الملك لويس التاسع يثق به كثيراً ويستشيريه في شئون الحملة وفي أموره الخاصة أيضاً ، حسب ما يرويه هو في كتابه حياة القديس لويس ، لذلك كانت العلاقة بينهما وطيدة .

- كتب جوانفيل مؤلفه حياة القديس لويس بأسلوب سهل ممتع واحترام عميق للملك لويس التاسع ، الذي كان في نظر معاصريه قديساً شهماً ، فهو يسهب في ذكر تفاصيل تتعلق بحياته ويكثر من مدحه والثناء عليه وتمجيد صفاته ، ويركز على الجوانب الدينية في شخصيته والاتجاه الديني في فكره وأهدافه من حملته الصليبية ، ويتمسك بموضوع العناية الالهية وتتدخلها في سير الأحداث التاريخية ، وهي صفة اتسم بها أغلب المؤرخين اللاتين من العصر الوسيط .
- تميز جوانفيل بموهبته في الوصف الدقيق لأحداث وتفصيل الحملة الصليبية السابعة على مصر ، لأنه كان أحد فرسان هذه الحملة وشاهد عيان لوقائعها وملابساتها وبحكم كونه مقرباً جداً من الملك الفرنسي ، وقد وصف بشكل واضح كل ما شاهده وفعله في تلك الحملة ، وهو على الرغم من تحيزه الشديد للسيدة لويس التاسع ، إلا انه يعتبر ثقة فيما يرويّه وينقله ، ولعل أبلغ دليل على ذلك أنه عندما كان يتعرض لحادثة أو واقعة لم يشترك فيها بنفسه ، فإنه كان يحرص على تقييد اسم الشخص الذي رواها عنه ، فضلاً عن كونه موضوعياً في سرد أحداث الحملة الصليبية السابعة وملابساتها ، وبالتالي فإن مؤلفه "حياة القديس لويس" يعدّ سجل عظيم القيمة لتاريخ الملك لويس التاسع وفرنسا الإقطاعية والحملة الصليبية السابعة على مصر .
- يمثل جوانفيل نموذجاً للفارس الفرنسي الصليبي وليد المجتمع الإقطاع الأوروبي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بأفكاره وبنزعتة الإقطاعية ورؤيته عن المسلمين وعن الحروب الصليبية خلال تلك الحقبة ، فقد كان ينتمي إلى طبقة البارونات الفرنسية وهي طبقة لها ثقلها ووزنها في المجتمع الفرنسي آنذاك ، وهو يمثل وجهة النظر اللاتينية المخالفة لوجهة النظر التي تقدمها المصادر العربية الإسلامية عن وقائع وأحداث الحملة الصليبية السابعة ، فكتابه يعد من أهم المصادر اللاتينية التي دونت في العصور الوسطى عن الحروب الصليبية .

المصادر والمراجع

١- المصادر

- بادربورن ، أولفر أوف (١٩٩٨م) ، الاستيلاء على دمياط ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تر: سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر .
- الباريسي ، متي (٢٠٠١م) ، التاريخ الكبير ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، تر: سهيل زكار ، دمشق ، دار الفكر .
- ابن تغري بردي ، يوسف بن عبد الله الأتابكي (١٩٩٢م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تح : محمد حسين ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

- جوان فيل ، جان دي (١٩٩٩م)، حياة القديس لويس ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تح: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر.
- جوان فيل ، جان دي(١٩٦٨م) ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، تر: حسن حبشي ، ط١، القاهرة ، دار المعارف .
- الحموي ، ياقوت بن عبد الله (١٩٧٧م) ، معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (٢٠٠٠م) ، تأريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تأريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة ، بيروت، دار الفكر .
- ابن خلكان ، أحمد بن محمد(١٩٩٤م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح : أحسان علي ، بيروت ، دار صادر.
- دي فيتري ، جاك (٢٠٠٥م) ، رسائل ، تر: عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، ط١، ليبيا، المكتب الجامعي الحديث .
- الذهبي ، محمد بن أحمد (١٩٨٣م)، سير أعلام النبلاء ، تح : شعيب الأرنؤوط وصالح السمر ، ط١، بيروت ، مؤسسة الرسالة .
- الفزويني ، زكريا بن محمد (د.ت) ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر.
- أبو شامة ، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (١٩٧٤م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تح : محمد زاهد الكوثري ، ط ٢ ، بيروت ، دار الجبل .
- الصوري ، وليم (١٩٩١م) ، الحروب الصليبية ، تر : حسن حبشي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ابن العديم ، عمر بن أحمد (د.ت)، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تح : خليل منصور ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي بن أحمد (١٩٩٢م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تح : عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط ، ط ١ ، بيروت ، دار ابن كثير .
- العيني ، بدر الدين محمود(١٩٩٨م) ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تح: محمد أمين ، القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب .
- أبو الفداء ، إسماعيل بن علي (د.ت)، المختصر في أخبار البشر ، تح : محمد زينهم عزب ويحيى سيد حسن ، القاهرة ، دار المعارف .
- ابن كثير ، إسماعيل بن عمر القرشي (١٩٩٨م) ، البداية والنهاية ، تح : عبدالله عبد المحسن التركي، ط١، القاهرة : دار هجر.
- المقريزي ، أحمد بن علي (١٩٩٧م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح: محمد عبد القادر عطا ، بيروت، دار الكتب العلمية .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم (د.ت) ، لسان العرب ، تح : عبد الله علي الكبير وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف .
- ابن واصل ، محمد بن سالم (١٩٥٨م) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح : حسنين محمد ربيع ، القاهرة : المطبعة الأميرية .

٢- المراجع

- الباشا ، حسن(١٩٨٩م)، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ، دار الفنية.
- براور، يوشع (٢٠٠١م)، الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس اللاتينية)، تر: عبد الحافظ عبد الخالق البناء، ط١، المربوطية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- جلال ، جلال زناتي(٢٠١٧م) ، الدبلوماسية الفرنسية للملك لويس التاسع أثناء وجوده في جزيرة قبرص(١٢ أغسطس ١٢٤٨ - ٢٢ مايو ١٢٤٩ م/١١ جمادى الأولى ٦٤٦ هـ - ٧ صفر ٦٤٧ هـ) ، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية ، العدد ٦، الاسكندرية، الجمعية العربية للحضارة والفنون الإسلامية .
- الحويرى ، محمود محمد(١٩٩٦م) ، مصر في العصور الوسطى ، ط١، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية .
- رنسيما ، ستيفن(١٩٩٣م) ، تأريخ الحملات الصليبية ، تر: نور الدين خليل ، ط٢، جنيف ، د. مط ، ج ٢ .
- رنسيما ، ستيفن(١٩٩٨م) ، تأريخ الحملات الصليبية، تر: نور الدين خليل ، ط٢، الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج ٣ .
- زابوروف ، ميخائيل(١٩٨٦م)، الصليبيون في الشرق ، تر : الياس شاهين ، موسكو : دار التقدم .
- الزركلي ، خير الدين(٢٠٠٥م)، الأعلام ، ط١٦، بيروت ، دار العلم للملايين .
- زكار، سهيل(١٩٩٩م) ، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفكر .
- زيادة ، محمد مصطفى(١٩٦١م) ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة : د.مط .
- صيدم، فريد وحيد(٢٠١٠م) ، جهاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وجهوده في توحيد مصر والشام (٦٣٨-٦٤٧ هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، غزة ، الجامعة الإسلامية .
- عاشور، سعيد عبد الفتاح(١٩٧٢م) ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية .
- العريني ، السيد الباز(٢٠٠٠م) ، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ، دار النهضة العربية .
- عمران ، محمود سعيد(٢٠٠٠م)، تأريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ - ١٢٩١ م ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية .
- غربال ، محمد شفيق(٢٠١٠م) ، الموسوعة العربية الميسرة ، ط١، بيروت، المكتبة العصرية .
- غنيم ، اسمت(١٩٩٠م) ، الدولة الأيوبية والصليبيون ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية .
- فلاح ، محمد يونس(٢٠١٣م) ، الملك الصالح نجم الدين أيوب وعلاقته بالقوى السياسية ٦٣٨-٦٤٧ هـ/١٢٥٠-١٢٦٠ م ، مجلة كلية العلوم الاسلامية ، مج٧ ، العدد ١٣، جامعة الموصل.
- قاسم ، قاسم عبده وعلي السيد علي(د.ت) ، الأيوبيون والمماليك ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية .
- المغلوث ، سامي عبد الله(٢٠١٣م) ، أطلس تاريخ العصر المملوكي ، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان .
- مقامي ، نبيلة إبراهيم (١٩٩٤م)، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة .

- يوسف ، جوزيف نسيم(د.ت) ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة.

٣- المراجع الأجنبية

- Martin, Sean(2004), The Knights Templar, USA, Trafalgar Square Publishing.
- RÜTH, AXEL(2017), Crusade Witness : Joinville's Vie de Saint Louis, within a book " Spectral Sea Mediterranean Palimpsests in European Culture", Edited by: Stephen G. Nichols and others, New York, Peter Lang.
- Tappan, Donald W(1967), "Two Chroniclers of Louis IX." within Rice Institute Pamphlet - Rice University Studies, 53, no. 4 , Rice University , Houston .

٤- مراجع الإنترنت

ما هو معنى كونتيسا - موسوعة نت ، <https://www.maoso3a.net>
https://fr.wikipedia.org/wiki/Chanson_de_geste